

جامع العفيف في حي الصالحية بدمشق

إعداد الباحثة: نبيلة القوصي

إخوتي قراء زاوية (معالم وأعيان):

كلنا يعلم بأن المساجد هي بيوت الله وأحب البلاد إليه، فقد أضافها الله عز وجل إلى نفسه إضافة تعظيم وتشريف، فقال عز وجل: **(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)** وقال صلى الله عليه وسلم: **(أحب البلاد إلى الله مساجدها).**

هذه الأهمية للمساجد دفعت المسلمين عبر التاريخ للعناية بها من حيث عمارتها وصيانتها، ومن ثم توظيفها في أرقى وأفضل الوظائف لتؤدي رسالة الإسلام العظيمة وهي بناء وعمارة و خلافة الله على الأرض بما يحب ويرضى، فهي مكان للعبادة فيها يُرفع اسم الله بالتعظيم والتسبيح، وفيها يلتقي العلم والدين، ليصبح هذا المسجد فيما بعد مهبطاً لأفئدة المسلمين والناس أجمع، لقوله تعالى: **(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ).**

وها هي مدينة دمشق الحبيبة عندما حملت عنوان **(مدينة المساجد)** لكثرة عددها وانتشارها بين أحيائها وحرارتها أصبحت مهبط أفئدة الناس أجمع.....

لم لا؟؟ فقد شاع في كل عصر و زمان أن دمشق ستكون خير مدن الإسلام، فسكانها هم أصفياء الله وخيرة خلقه، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(الشام صفوة الله من بلاده يسوق إليها صفوة عباده)..** حفظها الله وسائر بلاد المسلمين من شر وكيد الكائدين.

وكثيرة هي الكتب والمؤلفات التاريخية التي تتحدث عن روعة وجمال التراث المعماري لمساجد بنيت فوق أرض دمشق...

وأنتم مدعوون معنا لسياحة في أرضها يُراد منها التغيير الإيجابي في أفكارنا ومشاعرنا أولاً ومن ثم في سلوكنا كي نرقى ونسمو معاً لبناء الخير والصلاح في هذا البلد الكريم... فهل نستجيب لنداء ضمير التاريخ الإسلامي لنا؟

مع علمنا بأن الله عز وجل قد قال في كتابه الكريم:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) ماذا عملنا؟

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) وبماذا نتنافس؟

إخوتي:

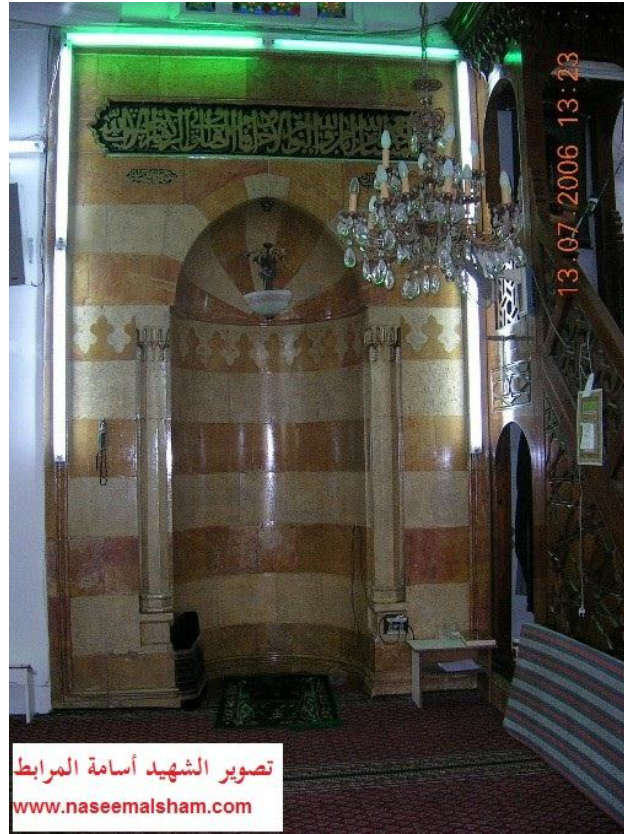
عندما نمشي خارج أسوار دمشق القديمة وعلى بعد كيلو مترين من شمالها باتجاه سفح قاسيون يقع حي الصالحية الذي عرف باسم (دمشق الجديدة)، تشكل هذا الحي خلال فترات متتالية: الزنكيين والأيوبيين والمماليك، وبفعل هجرات متتابة تطلب الأمن والأمان والاستقرار في دمشق هرباً من حروب صليبية كانت ولا زالت تهدد بلاد الشام حفظها الله وسائر بلاد العالم الإسلامي.

يحمل هذا الحي إرثاً تاريخياً كبيراً من مساجد ومدارس ومكتبات وأبنية تاريخية تحكي حجارتها قصص وحكايات رائعة عن أقوام سبقونا بالعلم النافع والعمل الصالح والمثابرة المستمرة لإحياء أسرار دعوة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام الذي دعاهم للهجرة إلى الشام عند اشتداد المحن والخطب، فهي أرض مباركة وسكانها من خيرة خلقه....

وعندما نمشي في هذا الحي ونصعد سفح قاسيون باتجاه جادة العفيف نرى على رأس الجادة جامعاً يدعى بالعفيف، يدعونا للتعرف عليه، فهيّا معاً نحقق الفائدة والمتعة....

أين يقع وما هو تاريخ بنائه؟

يقع المسجد خارج أسوار دمشق القديمة أي في (دمشق الجديدة) وفي جادة عُرفت باسم جادة العفيف.



تعد جادة العفيف من الجادات المشهورة في مدينة دمشق فهي من الأحياء المجدثة حيث كانت فيما مضى هذه الأراضي عبارة عن بساتين وأشجار نخيل وأرز، ومع التوسع العمراني الذي شهدته المدينة في أواخر العهد العثماني ظهرت أحياء جديدة كحي الشركسية، وحي المهاجرين، وحي العفيف الذي يقع بينهما، ويتفرع عنه حارات وشوارع عدة منها حارة المقرئ الجامع المتقن الشيخ (محمد سكر رحمه الله) حيث يقع منزله خلف المسجد. لذا تمهل أيها السائح وسوف نستشعر وإياك بسكينة نسيمات روحانية إيمانية عالية تهبط في أفئدتنا وتحثنا على زيارة ذلك الحي. فلنقرأ الفاتحة الشريفة لروحه الطاهرة سائلين المولى عز وجل أن نكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه... اللهم آمين.

نبدأ الزيارة بركعتي تحية المسجد في جامع العفيف، ثم نتأمل ذلك المعلم الأثري ونسأله ماذا يجئ لنا من كنوز تاريخية قد عاصرها وشهدها؟



يخبرنا الدكتور قتيبة الشهابي في كتابه (مآذن دمشق) بأن المسجد قد ورد ذكره في كتاب (خطط الشام) لمحمد أحمد دهمان فحدد تاريخ بنائه ما بين عام ٥٥٣ و ١١٥٣ للهجرة الموافق ١١٥٩/١٧٤٠ للميلادي مما يدل أنه يعود ربما للحقبة الأيوبية ومن المؤكد للحقبة المملوكية.

وتخبرنا المصادر عن حمام العفيف القديم واللوحه التي كانت مثبتة على بابه (من طلب العافية من رب لطيف فليقصد الله ثم حمام العفيف) التي تدلنا على تاريخ جادة العفيف، فالحمام يعود للقرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلادي، وكان يقع جنوب جامع العفيف غربي الصالحية، هذا يؤكد لنا أن تاريخ بناء مسجد العفيف قديم.

وإذا قرأنا اللوحه الرخامية المثبتة فوق الباب نجد التالي (جامع العفيف أنشأته دائرة الأوقاف الإسلامية بدمشق عام ١٣٩٦ للهجرة الموافق ١٩٥٠ للميلادي).

مما يدل إلى أن المسجد القديم هدم وأنشئ الحديث فووه.

هذا من حيث البناء، أما عن سبب التسمية فقد اختلفت الأقوال في ذلك:

فمنهم من قال نسبة لمنطقة العفيف التي كان فيها حمام العفيف القديم فسمي الجامع بالعفيف.

أو نسبة للشيخ (محمد العيفي) والذي سُميت المنطقة باسمه العفيف.
أو نسبة إلى عامل المسجد (العفيف بن أبي الفوارس) الذي ذكره أبو شامة في ذيله بأن تاريخ وفاته سنة ٦٦٣ للهجرة، وبأنه كان شاباً حسناً، تولى عمالة الجامع ومخزن الأيتام جمعاً له لحذقه بهذه المهنة، ودفن بالتربة التي أنشأها والده جوار الخانقاه الشيلية بسفح قاسيون.

فالخلاف في اسم الشخص الذي سمي الجامع باسمه. هل إلى الشيخ محمد العيفي؟ أم إلى عامل المسجد العفيف ابن أبي الفوارس؟ أم إلى المنطقة نفسها والتي وجد فيها حمام قديم عرف بالعفيف؟



علماً أن كتب التراجم مليئة بأسماء لعلماء في الحديث والتصوف أمثال: عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني وغيره من العلماء الذين حملوا لقب عفيف الدين قبل أسمائهم.

وما يهمننا أن نقف على آثار وسيرة من مضى لاستحضار عبرة وعظة في قلوب قد خفتت فيها العزيمة والإرادة للعمل الصالح لقوله تعالى: **(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ...)**. ومن هنا تأتي أهمية السياحة وفوائدها الروحية....

أما عن الخلافات في سبب التسمية، فيكفي أن معنى العفيف لغوياً: كف عن الحرام، فسيدنا يوسف عليه السلام قد سمي بالعفيف ابن يعقوب كناية عن العفة والطهارة، وهذا من أسرار جمال أحياء مدينة دمشق التي تحمل أسماء بليغة ففي كل حجر من حجارها المبنية والمرصوة حكاية تنبئ وتبشر بأنها هي سيدة المدن والعواصم.... لا يرى هذا الجمال والجلال إلا من عرف قدرها وعمل لعمارها بما يجب ويرضى الله ورسوله.... وهذه دعوة لأحياءهم يعيشون ويحيون فوقها، ولكن تنقصهم همة وإرادة العمل! فهيا أيها السائح المسلم نعلم ونعمر بالخير والصلاح والفلاح...

إخواني:

نأتي الآن إلى وصف الجامع الذي يتألف من طابقين، وتبلغ مساحته من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ متر، له بابان أمامي وخلفي، ويوجد في منتصفه منبر خشبي وتعلوه مئذنة واحدة. وأترك أيها السائح المسلم متأملاً الصور والمشاهد، فهي عبرة يعتبر بها كل واحد منا بطريقته، شرط استحضار النية في التغيير الإيجابي للعمل الصالح والنافع لنفسك ولغيرك ولو بدعاء في ظهر الغيب.... لقوله صلى الله عليه وسلم: **(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)**.

المصادر والمراجع:

الحوليات الأثرية العربية السورية لمديرية المتاحف والآثار.

مآذن دمشق للدكتور قتيبة الشهابي.